الاختلاف بالحدث بين المتعاطفين المفردين بالواو في السياق القرآني

أ.م.د. رعد هاشم عبود ، أ.م.د. قاسم محمد كامل
جامعة ذي قار/ كلية التربية / قسم اللغة العربية

تطرقت المصنفات النحوية والرسائل الجامعية الى معنى العطف لغةً واصطلاحاً (١) ، وكونه أحد التوابع الخمسة . ومع أنَّ النحويين اختلفوا في ترتيبهم لهذهِ التوابع ، إلاّ أنَّ العطف بقيَ هو آخرها . والحديث في تفصيل ما سبق لا يعدو الاّ أن يكون تكراراً لكلام الآخرين ، ودون ان يكون له دورٌ فيما نحن بصدده . ومع أنَّ عمل حروف العطف متعددٌ فمنها ما يفيد الإشراك في الحكم والأعراب ، ومنها ما يقوم بالإشراك فقط من ناحية الحركة الاعرابية ؛ إلاّ أنَّ هدف هذه الدراسة هو الخوض في سمةٍ معنوية آتسم بها العطف بالواو في حالة المفرد على وجه الخصوص ، وهذهِ السّمة المعنوية تمثلت في الاختلاف بالحدث بين المتعاطفين ؛ إذ أنَّ ما اجمع عليه القوم بخصوصها يدور حول افكار ثلاثة :

أنها لمطلق الجمع ، ولا تفيد الترتيب عند جمهور النحويين(٢) ، وزمن حصول الحدث معها ليس بثابت لأحد المتعاطفين ، فقد يسبق الأول الثاني أو العكس أو أن يكونا معاً (٣) .

ومعنى مطلق الجمع في الواو أنّها تُشرك المتعاطفين من حيث اللفظ والمعنى .

أمّا الإشراك اللفظي ، فهو الاسمية أو الفعلية والرفع والنصب والجر والجزم ، فيتبع الثاني الاوّل في اثنين من ستة .

إلا أنَّ حديثنا يبقى مخصصاً للمعنى ؛ إذ إننا نرى – ولعلنا نصيب في ذلك – أنَّ الحدث اختلف بين المتعاطفين المفردين ؛ وممّا سبب ذلك هو الفصل بين المتعاطفين ،أو أنَّ ارادة الاختلاف بالحدث هي التي استلزمت نمطاً خاصّاً من التركيب ، جاء بصورة الفصل بين المتعاطفين .

وفي الوقت الذي رأينا فيه القدماء قد ركزوا على التبعية الإعرابية في موضوع العطف ، مثلما الحال في التوابع بصفة عامّة رأينا المحدثين قد أهتموا بجانب آخر وهو التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم على حدِّ تعبير سيبويه (٤)، لذلك يرى ابراهيم مصطفى فصل العطف عن التوابع (٥)، ومثله فعل الدكتور مهدي المخزومي ؛ إذ يعتقد أنَّ عطف النسق ليس من التوابع ؛ لأن ما بعد الحرف شريك لما قبله في الحكم اسناداً او اضافة(٦).

والذي نراه أنَّ مسألة التشريك في الحكم تبقى مسألة نسبية ؛ إذ اختلفت نسبة الحكم بين المتعاطفين – على وفق ما يأتي من نماذج قرآنية ، مّما يشير الى اختلاف نسبة التشريك ، وتأسيساً على ما سبق يمكن القول : إن العطف بالواو بين المفردين إذا كان بصورته الاعتيادية كان التشريك بالحكم تاماً ، وإذا جاء على غير عادته بأن فصل بين المتعاطفين فاصل ما ، كان التشريك ناقصاً .

وما دام التشريكُ بالحكم لم يكن دائماً على مستوى متكامل بين المتعاطفين ؛ لذلك نرى الاحتكام الى التبعية الاعرابية وجعلها الفيصل في انضمام العطف الى التوابع .

ولا مزية بعد ذلك معنوية دقيقة لقولهم : إنَّ الواو تجعل الحدث شركة بين المتعاطفين ، والقول الأدق في اعتقادنا : إنَّ الواو تشرك في اصل الحدث ، أمّا نسبته فقد تكون مختلفةٌ بينهما ، ثمَّ أننا لا نرى القول باصالة الثاني الا عودة للقول بوجود حذفٍ من السياق وهو ما أكده المتقدمون ايضاً ، والسائد في الدرس النحوي الترابط والتتابع بين المتعاطفين ، ولا يفصل بينهما بأجنبي ، وأشار النحويون الى عدم الفصل بالجملة (٧) ، وترصد هذه الدراسة عطف مفرد على مفرد ، كما في قولنا : جاء زيدٌ ومحمدٌ ؛ إذ الاشتراك هنا بالحدث فقط ؛ لأنَّ الاختلاف حاصلٌ من حيث الزمن ، فأذا قلنا مثلاً : جاء زيدٌ مسرعاً ومحمدٌ ، فمما لا شكَّ فيه أنَّ الإسراع ثابت لزيد لكنَّ محمداً لم يثبت له ذلك كذلك لو قيل جاء زيد ومحمدٌ مسرعاً ؛ اذ لو أراد المتحدِّث ذلك لقال : جاء زيدٌ ومحمدٌ مسرعين ، ولا شيء يعجزه عن ذلك .

إنَّ تقديم ما رتبته التأخير لا يمكن أن يكون عشوائياً دون ضابطٍ معينُ يريدهُ منشيء اللغة لذلك اعتقد أنَّ النماذج القرآنية التي ستأتي لاحقاً تندرج تحت هذا العنوان ولعلي لا اخطئ الصواب اذا تصوَّرتُ أنَّ لذلك سبباً ، قد يكون مقنعاً او لا يكون ، وحسبي أنني أُشير إليه بالادلة المتوافرة ؛ وربّما يُبنى عليه في دراسات لاحقة ، وهذا المعنى أو التصوُّر الذهني الخاضع للصواب أو الخطأ ، ربمّا يكون عدم المساواة بين المتعاطفين في الحكم او الحدث ، أو يمكن القول : إن اختلاف نسبة الحدث بينهما أدّت الى تباعدهما كأسلوب لجأ اليه النص القرآني في ترتيب المتعاطفين .

وأول ما نشاهده من نصوص قرآنية لهذا الغرض هو قوله تعالى : ((إذ يرفعُ ابراهيمُ القواعد من البيت واسماعيلُ ربّنا تقبل منا إنّك أنت السميعُ العليمُ)) (البقرة/١٢٧) إذ أشارت كتب التفسير الى أنَّ

(اسماعيلُ) عطف على ابراهيم(٨)، والسياق هنا يوجب التركيز فيه على العلاقة بين المسند (يرفعُ) ومتمم الجملة المفعول به (القواعد) وليس في واحدٍ منها ؛ فرفع القواعد ، هل تَمَّ منهما بشكل متماثل تماماً أولا ؟

فالمتتبع لكتب التفسير يجد أنها أشارت الى أنَّ (ابراهيم (ع)) كان يبني و (اسماعيل (ع)) كان يساعده في ذلك ؛ فلذا كان الفصل أو تقديم المفعول به المتأخر رتبةً عن المسند اليه على المعطوف (اسماعيل (ع)) يسانده في ذلك قراءة عبد الله بن مسعود:((يقولان ربّنا تقبّل منا))(٩) هذا يعني أنَّ الاستئناف في (اسماعيل(ع)) بعيدٌ عن سياق الآية ، ومعنى الاستئناف أنَّ الاول يبني والثاني يدعو له : أي وأسماعيل يقول ربّنا تقبل منا ... ، وهذا ممّا لم يؤيده جمهور المفسّرين .

وعضّد ارادة العطف والاختلاف بالحدث بين المتعاطفين قول الالوسي :((واسماعيلُ عطف على ابراهيم وفي تأخيره على المفعول المتأخر عنه رتبة اشارة الى أنَّ مدخليته في رفع البناء والعمل دون مدخلية ابراهيم عليه السلام وقد ورد أنَّهُ كان يناوله الحجارة ...))(١٠) ، ويدرج تحت ذلك أيضاً قوله تعالى : ((ووصّى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بنيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون))(البقرة /١٣٢) إذ يعتقد الزمخشري أنَّ (يعقوب (ع)) داخل في حكم ابراهيم (ع) ، أي ووصّى يعقوب (ع) بنيه ايضاً (١١) ، والسؤال هنا هو مالذي أعجز النص عن القول : ووصّى ابراهيمُ ويعقوب بنيهم ؟

أعتقدُ أن لا شيء يعجزُ عن مثل هذا القول ، الاّ أن يكون الاختلاف بالمعنى بين الصياغتين هو العنصر المهم الذي رُوعي مراعاة خاصة ؛ لأنَّ جهة المخاطب تختلف اولاً (١٢)، وانها ليست هي الوصية نفسها ثانياً ، يقول الفخر الرازي : ((امّا قوله (يعقوب') ففيه قولان : الاول وهو الأشهر : أنَّه معطوف على ابراهيم ، والمعنى أنَّه وصّى كوصية ابراهيم))(١٣) ، فالتشبيه هنا – على ما أظن –لا يشير الى تمام المماثلة قولاً ومعنىً وانما يشير الى المعنى العام – والله اعلم - و يؤيد ذلك قراءة الرفع في يعقوب والخبر عند ذلك محذوف تقديره كذلك ويكون عندها من عطف الجملة الاسمية على الفعلية (١٤) ونعلم الفرق بين دلالة الجملة الفعلية على التجدد ودلالة الجملة الاسمية على الثبوت . ولعلَّ اصطفاء الرسل من الملائكة هو غيره اصطفاء الرسل من الناس ؛ يبدو ذلك إذا أنعمنا النظر في قوله تعالى : ((اللهُ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إنَّ اللهَ سميع بصير)) [الحج/٧٥] .

لقد فصل النص القرآني بين المتعاطفين بالمفعول به (رسلاً) ؛ إذ الاصطفاء هنا يختلف ؛ لأنَّ اصطفاء الرسل من الملائكة ليتوسطوا بينه تعالى وبين الانبياء عليهم السلام بالوحي .

ومن الناس يصطفى الرسل ليدعوا من شاء تعالى إليه ويبلغوهم ما نزل عليهم (١٥) يثبت الآلوسي هذا الاختلاف في مأمورية كل جهة واختصاصها بقوله : ((وقيل : إنَّ المراد الله يصطفي من الملائكةِ رسلاً الى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به من الطاعات ومن الناس رسلاً الى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به ايضاً)) (١٦) ، ويؤيد ذلك ما قاله الفراء : ((قوله : الله يصطفي من الملائكة رسلاً اصطفى منهم جبريل وميكائيل وملك الموت واشباههم ، ويصطفي من الناس الانبياء)) (١٧) ، وقد يتقدم المفعول الثاني على المفعول الاول المعطوف ليفصل بين المتعاطفين ، ومجيء السياق هكذا ايذان الى وجود اختلاف في الحكم ، يظهر هذا في قوله تعالى ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم)) [التوبة /٣١] .

فاتخاذ اليهود الاحبار وكذلك النصارى اتخاذهم الرهبان أرباباً ، ليس على اساس أَنهم جعلوهم آلهةً بل أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم بخلاف المسيح ابن مريم الذي جعلوه ربّاً معبوداً أو ابناً لله ، يقول الفخر الرازي في ذلك : ((الاكثرون من المفسّرين قالوا : ليس المراد من الارباب أَنّهم اعتقدوا فيهم أَنَّهم آلهة العالم ؛ بل المراد أنَّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم))(١٨)هذا فيما يخص الاحبار والرهبان، أمّا ما يخصّ المسيح ابن مريم فقد أوضح الآلوسي ذلك بقوله:((والمسيح ابن مريم عطف على رهبانهم بأن اتخذوه رَبّاً معبوداً أو بأنْ جعلوه ابناً لله كما يقتضيه سياق الآية...))(١٩) .

ويتبين الاختلاف واضحاً في نسبة الحدث المسند لله سبحانه وتعالى – والمسند لرسوله الاكرم (ص) ؛ إذ رؤيته لأعمال الناس تختلف تماماً عن رؤية من سواه ، كيف لا ؟ وهو الخالق لكل شيء والعالم بكل شيء ، فما يعطيه من علم هو جزء من علمه ، وليس كل علمه ، لذلك يجب أن يفهم سياق الآية المباركة ((وسيرى الله عملكم ورسولُه)) [التوبة /٩٤] على وفق ذلك ، يقول الآلوسي موضحاً هذا المعنى بقوله : ((أي سيعلمه سبحانه علماً يتعلق به الجزاء ، فالرؤية علميّة والمفعول الثاني محذوف ، أي أتنبيون عمّا أنتم فيه من النفاق أم تثبتون عليه وتقديم مفعول الرؤية على الفاعل من قوله سبحانه (ورسوله) ؛ للأيذان بإختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما ، وللأشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عزَّ وجل بأعمالهم))(٢٠) ، ومثل ذلك أيضاً يُقال عند الحديث في قوله تعالى : ((ربّنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتهم ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم)) [غافر/٨]إذ فَصَل السياق القرآني بين المتعاطفين بقوله : (جناتِ عدن التي وعدتهم) ؛ ويتضح من خلال النظر الى الآية المباركة أَننا أمام ركنين اساسيين هما الموعودون بالجنّة المتقدّمون في الآية ، والمُصلُحون المتأخِّرون في السياق ولا شكَّ أنَّ هناك فرقاً بين الجهتين من حيث إدخالهم الجنَّة ، الأولى تدخل بالأصالة والثانية تدخل بشفاعة الأولى لها ، هذا على أساس أنَّ العطف يكون بين (من صلح) وبين الهاء في (أدخلهم) ،وليس على أساس ما صَرَّح به الفراء والزجاج بجواز أن يكون العطف على الهاء في (وعدتهم) ، يقول الفراء : ((من نصبٌ من مكانيين : ان شئت جعلت (ومن) مردودة على الهاء والميم في (وأدخلهم) ، وإِن شئت على الهاء والميم في (وعدتهم)) (٢١) والعطف الأول أولى لأنَّ الاختلاف حاصل بين الجهتين والذي أوجد هذا الاختلاف الفصل بين المتعاطفين ، يؤيد ذلك اتفاق المفسرين على أنّ ادخال مَن صَلَح الجنّة هو من باب الاتباع ، وليس من باب الاصالة ، ولكي يتم سرور المتقدّمين منهم وابتهاجهم (٢٢) . ويثبت ذلك الآلوسي بقوله : ((والظاهر العطف على الأوّل والدعاء بالادخال فيه صريح ، وفي الثاني ضمني ، والظاهر أنَّ المراد بالصلاح الصلاح المُصَحَّح لدخول الجنّة ، وإن كان دون صلاح المتبوعين ...))(٢٣) ، ويوضح المعنى السابق القرطبي بقوله : ((قال سعيد بن جبير : يدخل الرجلُ الجنّة ، فيقول : يا ربّ أين أبي وجدي وأمي ؟ وأينَ ولَدَي وولد ولدي ؟ وأين زوجاتي ؟ فيقال : إنَّهم لم يعملوا كعملك ، فيقول : يا رب كنتُ أعمل لي وَلَهم ، فيقال ادخلوهم الجنّة)) (٢٤)

فيما سبق من نماذج قرآنية رأينا أنَّ نسبة الحدث للمعطوف عليه كانت أشدُّ وأقوى ؛ بسبب الفصل بين المتعاطفين بالمفعول به فقط أو به وأشياء اخرى ، أو بكلام أَدق إنَّ ارادة الاختلاف بنسبة الحدث سوَّغت مجيء النصوص المتقدِّمة على وفق الترتيب المشار اليه في موضعه ، وهذا المعنى يحدث أيضاً إذا كان الفصل بجملة لكنَّها ترتبط بالمعطوف عليه ، أي أنَّها ليست بأجنبية عن المعطوف عليه ، كما في قوله تعالى : ((شَهِدَ الله أَنَّه لا إلـه إلا هُوَ والملائكةُ وأولو العلمِ قائماً بالقسط)) [آل عمران/١٨] إذ يمكن أن يكون (قائماً بالقسط) منتصباً على الحال من لفظ الجلالة فقط،دون الملائكة وأولى العلم ؛ ليس على أساس منع الالتباس كما قيل (٢٥) بل يزاد عليه أنَّ الشهادة هنا تختلف ؛ إذ كيف نتصور أَنَّ شهادة الله على نفسه هي بالمستوى نفسه لدى الملائكة أو أولي العلم أو غير ذلك ؟ فالفصل هنا إنّما لتأكيد الاختلاف بين المتعاطفين ، يقول ابو حيان الاندلسي : ((وأنّه لا اله الا هو) مفعول شهد ؛ وفصل به بين المعطوف عليه والمعطوف ليدلّ على الاعتناء بذكر المفعول وليدلَّ على تفاوت درجة المتعاطفين بحيث لا ينسقان متجاورين ...))(٢٦) من خلال قول ابي حيان يتضح وبشكل جليّ – أنَّه إذا كان هناك اختلاف بالحدث بين المتعاطفين كان السياق أمْيَل الى الفصل بين المتعاطفين . ومثل ذلك يقال عند الحديث في قوله تعالى : ((لكن اللهُ يشهدُ بماأُنزِلَ اليك أَنزَلَهُ بعلمه والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شهيداً)) [النساء/١٦٦] . إذ فصل السياق بين المتعاطفين بالجار والمجرور وجملتين فعليتين متتابعتين ، وأرى أنَّ شهادة الله سبحانه وتعالى هي غيرها شهادة الملائكة ، ويعضد ذلك ما ذكره الزمخشري ؛ إذ يقول : ((ومعنى شهادة الله بما أَنزل اليه : اثباته لصحته باظهار المعجزات ، كما تثبت الدعاوى بالبينات ، وشهادة الملائكة : شهادتهم بأنَّه حقٌّ وصدق)) (٢٧) ، هذا يعني أنَّ شهادتهم تبعٌ لشهادته (٢٨) ، يُزادُ على ذلك مافي السياق من مخصص اخر للتفريق بين الحدثين لا على الاساس الكلي بل على المستوى الجزئي ، وهو وجود الجملة المفسِّرة (أَنزله بعلمه) ، يقول الزمخشري في تفسير ذلك : ((معناه أَنزله ملتبساً بعلمة الخاص الذي لايعلمه غيره)) (٢٩) إنَّ تكرار لفظة يشهدون لا يعني أنَّ السياق سياق عطف جملة اسمية على اسمية كما أشار الى ذلك بعض المفسّرين(٣٠) ؛ لانَّ الذي يتضح أنَّ الله يشهد والملائكة ولكن فصل بينهما ، لانّ شهادة الله سبحانه وتعالى هي غيرها شهادة الملائكة ، وكأنَّه جيء بيشهدون توكيداً ، وقوله تعالى ((وكفى بالله شهيداً)) دليل على أنَّ شهادة الله سبحانه وتعالى هي الشهادة المطلقة التي لا يحتاج معها الى شهادة اخرى. وممّا فصل فيه بين المتعاطفين بأنْ المصدرية والفعل الناقص واسمه وخبره والجار والمجرور و لا النافية قوله تعالى: ((لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقرّبون))[النساء / ١٧٢]

وتقدير الكلام : لن يستنكف المسيحُ العبودية لله ولا الملائكةُ المقرّبون . ولعلَّ الفصل هنا لايخرج عن المعنى الذي تريده الدراسة ؛ ذلك أنَّ المفسّرين أجمعوا على الفرق بين الملائكة المقربين والمسيح (ع) في باب الافضليّة والقرب من الله سبحانه وتعالى بغض النظر عمّن يُقدَّم على الآخر في هذا الجانب ؛ لكنَّ الثابت هو الاختلاف بينهم (٣١) ؛ لذا فانَّ استنكاف العبوديّة يختلف بين الطرفين اعتماداً على أفضلية قرب احدهما من الله سبحانه وتعالى على حساب الآخر وعلى وفق هذا التأويل يمكن توجيه اختلاف الحدث بين الاتقاء من الله والاتقاء من الأرحام ، في قوله تعالى : ((واتقوا اللهَ الذي تُساءلون بِهِ والأرحام)) [النساء /١] في حالة عطف(الأرحام) على لفظ الجلالة (الله) ، مع أنَّ النحويين والمفسّرين قد أشاروا الى أنَّ لفظ (الأرحام) معطوف إمّا على محل الجار والمجرور أو

محل المجرور فقط أو معطوف على لفظ الجلالة (٣٢) ، وقد تحدَّثت المصنفات النحوية وكتب القراءات وكتب التفسير كثيراً عن قراءة الجر في الأرحام (٣٣) ، وأظنُّ أنّ المعنى الذي يعطيه عطف (الأرحام) على لفظ الجلالة (الله) هو غير المعنى الذي يعطيه عطف (الأرحام) على محل الجار والمجرور أو المجرور فقط ؛ إذ الأول يستلزم فصلاً والثاني لا يصاحبه ذلك ، لأن الأول يصاحبه اختلاف بالحدث ، فيكون تقوى الله ليس كتقوى الارحام ؛ باعتبار أنَّ الثانية سبب للوصول إلى الأولى والإتصاف بتقوى الله يشتمل حتماً على تقوى الارحام ، ولو أراد الله – سبحانه وتعالى – التشريك بالحدث تشريكاً تامّاً لقال : واتقوا الله والارحام اللذين تساءلون بهما وذلك هو القياس في النحو والخروج عليه لا يكون الا لغاية ولعلها التنبيه الى وجود اختلاف بالحدث بين المتعاطفين ، يزاد على ذلك أنَّه – سبحانه وتعالى – اراد التنبيه الى مكان ذلك منه ، تشجيعاً للتقارب بين الناس لبناء المجتمع المتراص المتآخي ؛ يقول الآلوسي : ((ولعلَّ الجملة حينئذ معترضة ، والا ففي العطف خفاء ، وقد نبّه سبحانه إذ قرن الارحام باسمه سبحانه على أَنَّ صلته بمكان منه تعالى)) (٣٤) .

أمّا الثاني – وهو عطف (الارحام) على محل الجار والمجرور او المجرور فقط ، فقد جاء بلا فاصل بين المتعاطفين فتكون المشاركة بينهما في معنى المساءلة وليس في التقوى ، وأرى ان هناك اختلافاً بين الحالتين من حيث المعنى ، أقصد عطف(الارحام) على لفظ الجلالة (الله) أو الجار والمجرور ، مع أنَّ النحويين يجيزون ذلك كلّه .

ونجد ذلك أيضاً إذا فصل بين المتعاطفين جار ومجرور كما في قوله تعالى : ((هل ينظرون إلاّ أَنْ يأتيهم اللهُ في ظُلَلٍ من الغمامِ والملائكةُ وقُضي الأمرُ)) [البقرة /٢١٠] ؛ إذ قرأ الجمهور لفظ (الملائكة) بالرفع عطفاً على لفظ الجلالة (الله) (٣٥) ، لكنَّ الله – سبحانه وتعالى – لا يأتي على وجه الحقيقة مطلقاً ، بل يأتي أمرهُ ، في حين اتيان الملائكة على وجه الحقيقة ذلك ممكن فيهم (٣٦) ، كما أنَّ اتيان امر الله – سبحانه وتعالى – هو غيره اتيان الملائكة فـ (في ظُلَلٍ من الغمام) مأمورة من الله ، ولا يمكن أن تكون مأمورة من الملائكة إلاّ بأذنه تعالى ؛ لذلك فأنّ قراءة الجر للملائكة عند بعض أهل المدينة يريدون ((في ظُلَلٍ من الغمام وفي الملائكةِ)) (٣٧) إنّما هي محاولة للتخلص من ذلك التشريك التام في الحدث بين المتعاطفين ؛ الذي لا يمكن أن يحدث في هكذا سياق ، ولو أراد الله حدوثه لما كان ذلك الفاصل على ما نعتقده على أساس أنّه لا يمكن الاعتقاد أنَّ الله والملائكةُ على حدٍّ سواء يُرسلان الظُلَل من الغمام ، إلاّ أن يكونَ الملائكةُ واسطة لهذا الامر ، ويعضد هذا الامر قراءة عبد الله بن مسعود ((إلاّ أنْ يأتيهُمُ اللهُ والملائكةُ في ظُلَلٍ من الغمام))(٣٨) ، ويؤيد ذلك ايضاً قول أبي حيان : ((وقيل في هذا الكلام تقديم وتأخير ؛ فالاتيان في الظلل مضاف الى الملائكة والتقدير إلاّ أَن ياتيهم اللهُ والملائكةُ في ظُلَ ، فالمضاف الى الله تعالى هو الاتيان فقط ...)) (٣٩) ويؤكد ذلك قول القرطبي:((تأتيهم الملائكةَ في ظُلل من الغمام ويأتيهم اللهُ فيما يشاء)) (٤٠) فهذا – على مانظن - دليل واضح على وجود اختلاف في نسبة الحدث للمتعاطفين . ولو أنّا اعتقدنا أنّ الواو ليست فقط للتشريك المطلق ، بل قد تاتي في نصوص يختلف فيها الحدث لحلَّ هذا الاشكال .

وأذهبُ الى الامر نفسه فيما يتعلق بالعطف على ضمير الرفع ؛ إذ أوجب النحويون البصريون ضرورة المجئ بضمير منفصل ، يكون مؤكداً للضمير المستتر أو المتصل ، فاصلاً بين المعطوف والمعطوف عليه (٤١) ، بينما جوّز الكوفيون العطف دون الحاجة الى الضمير المنفصل (٤٢) ، فعلى رأي البصريين القياس أنْ نقولَ : اذهب أنت واخوك ، وعلى رأي الكوفيين يجوز : أذهب وأخوك . ومع أنَّ سيبويه وصف العطف على الضمير المستكن دون وجود ضمير منفصل بالقبح ؛ إذ قال:((وإنْ حملتَ الثاني على الاسم المرفوع المضمر فهو قبيح ؛ لأنَّكَ لو قلت : أذهب وزيدٌ كان قبيحاً ، حتى تقول : أذهب أنت وزيدٌ)) (٤٣) ، إلاّ أَنَّ النحويين من بعده لم يبتعدوا عن الاتجاه الشكلي عند التعرّض لهذا الموضوع ، إذ تصَّور ابن عصفور أنَّ الضمير المنفصل بمثابة الاسم المتقدّم الذي عطف عليه الاسم المتأخِّر (٤٤) ، ولم يبتعد كلام الرضي في هذه المسألة عمّا سبق – وإن فسَّره باتجاهين لفظي ومعنوي يقول : ((لأنَّ المتصل المرفوع كالجزء ممّا اتصل به لفظاً من حيث إنّه متصل لا يجوز انفصاله كما جاز في الظاهر والضمير المنفصل ، ومعنىً من حيث انّه فاعل والفاعل كالجزء من الفعل ، فلو عُطِفَ عليه بلا تأكيد كان كما لو عطف على بعض حروف الكلمة)) (٤٥) .

ويرجح ابن الانباري رأيَ البصريين على رأي الكوفيين على أساس أنَّ الفاعلَ إمّا مقدرٌ أو ملفوظٌ به ، فإن كان مقدراً كما في المثال : قام وزيدٌ فهو من باب عطف الاسم على الفعل ، وإن كان ملفوظاً به كما في المثال : قمتُ وزيدٌ فانّما الضمير ينزل بمنزلة الجزء من الفعل ، فلو جاز العطف عليه ، لكان أيضاً بمنزلة عطف الاسم على الفعل (٤٦) .

ولعلَّ المعنى السابق أقرب الى الاتجاه التعليمي منه الى الجانب الحقيقي الذي يفرّق فيه المعنى بين الاساليب اللغوية ؛ إذ كيف نعتقد أنَّ زيداً معطوف على قام في المثال الاوّل : قام وزيدٌ – وهم يقولون – ألاّ فعلَ بلا فاعل ، أو معطوف على (قمتُ) في المثال الثاني : قمتُ وزيدٌ .

ومع أنَّ المفسّرين يشيرون الى الجانب الشكلي في هذهِ المسألة ، ويعتمدون رأي النحويين فيها من

أنَّ الأصوب والاكثر عند العطف على الضمير المستكن أو المتصل هو المجيء بالضمير المنفصل (٤٧) ، إلاّ اننا نشعر ملمحاً معنوياً عند استعراضهم تلك المسألة يبدو هذا مثلاً عند حديثهم في قوله تعالى : ((وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجُك الجنّة)) [البقرة/٣٥] ؛ إذ يُشير أكثر أئمة التفسير الى أنَّ حواء –عليها السلام – قد خُلقت بعد دخول آدم – عليه السلام- الجنّة (٤٨) ممّا يعني أنَّ مجيء الضمير المنفصل هو للايذان بقوة الحدث وتقريره لآدم – عليه السلام – وانَّه اتصف به اتصافاً تاماً على نحو الاصالة ، في حين كان دخولها – عليها السلام – على نحو التبعيّة ، يقول الآلوسي في ذلك : ((أَنت توكيد للمستكن في (اسكن) والمقصد منه بالذات صحّة العطف ؛ إذ لولاه لزم العطف على الضمير المستكن بلا فصل وهو ممتنع في الفصيح على الصحيح ، وافادة تقرير المتبوع مقصودة تبعاً))(٤٩) ثم أنَّ السياق لم يلجأ الى أستعمال لفظ (اسكنا) بدل اسكن للأشارة الى أنَّه – عليه السلام – هو المقصود بالحكم في جميع الاوامر ، وهي تَبُعٌ له ، كما أنَّها في الخلقة كذلك(٥٠) ، ونعتقد الأمرَ نفسه عند الحديث في قوله تعالى : ((اذهب أنت وأخوك بآياتي)) [طه/٤٢] أو غيرذلك من الآيات القرآنية التي جاءت على الشاكلة نفسها . إنَّ المجيء بالضمير المنفصل في حالة العطف على الضمير المستكن او المتصل ، إنّما يكون لحصر الحكم بالمتقدِّم أو توجيه الخطاب له ؛ لتكون نسبة الحدث التام متخصصة له ، ثم يشمل ذلك الحكم المعطوف ؛ لأنَّه قد لا يكون موجوداً في حال الخطاب ، وهو أمر جائز ، والكوفيون – وإن جوزوا- (قام وزيدٌ) ، فهذا لا يعني انكارهم الفرق الدلالي بينه وبين(قام هو وزيدٌ) على اساس أنَّ القواعد النحوية قد اجازت ذلك من حيث الشكل ، وعدم المجيء بالضمير المنفصل في حال العطف على ضمير النصب بخلاف ضمير الرفع ؛ لكون الأخير هو العمدة في الكلام ، وهو المقصود بالحكم ، فكان الاهتمام به أكبر .

نتائج البحث

توصلت الدراسة الى ما يأتي : -

١. إنَّ حرف العطف الواو قد يخرج عن معناه الأصلي وهو التشريك بالحدث بين المتعاطفين المفردين الى الاختلاف بينهما من ناحية الحدث ، بحيث يتصف الاول اتصافاً تاماً به وينقص الثاني بهذا الاتصاف أو يكون تبعاً له في الحكم ؛ وبمعنى آخر يكون الاول متصفاً بالحدث على نحو الاصالة في حين يكون الثاني متصفاً به على نحو التبعية ، وتمثل ذلك بآيات قرآنية متعددة احتوتها الدراسة .

٢. إنَّ السبب الأساس لذلك الاختلاف هو وجود فاصل بين المتعاطفين المفردين ، والفاصل اتخذ اشكالاً متعددة ؛ إذ يكون مفعولاً به أو جملة أو جاراً ومجروراً أو ضميراً منفصلاً ، او غير ذلك

٣. وذلك المعنى ايضاً ينطبق في حال العطف على ضمير الرفع المستكن أو المتصل ؛ إذ أنَّ وجود الضمير المنفصل هو أشارة الى اتصاف المتبوع بالحدث اتصاقاً أقوى من اتصاف التابع .

المصـــادر

اولاً : الكتب

١.القرآن الكريم .
٢.احياء النحو : ابراهيم مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩م.
٣.اسرار العربية / أبو البركات الانباري (ت ٥٧٧ هـ) عُنيَ بتحقيقه : محمد بهجة العطار ، مطبعة الترقي بدمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي – دمشق /١٩٥٧م
٤.الاصول في النحو / ابن السرّاج (ت٣١٦هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مطبعة سلمان الاعظمي ، بغداد ١٩٧٣م .
٥.اعراب القرآن / ابن النحاس (ت٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه / عبد المنعم خليل ابراهيم – دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ط ١-٢٠٠١ .
٦.الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين / ابن الانباري (ت ٥٧٧ هـ) تاليف محمد محيي الدين عبد الحميد / دار احياء التراث العربي .
٧.تفسير ابي السعود / لأبي السعود (ت ٩٨٢ هـ) وضع حواشيه : عبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،١٩٩٩م .
٨.تفسير البحر المحيط / ابو حيان الاندلسي (ت٧٤٥ هـ) دراسة وتعليق وتحقيق : الشيخ عادل احمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت ،لبنان ، ط ١، ٢٠٠١م .
٩.تفسير القرطبي / القرطبي (ت٦٧١ هـ) ، تحقيق سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان /ط١-٢٠٠٠م .
١٠. التفسير الكبير او مفاتيح الغيب / الفخر الرازي (ت٦٠٤ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١-٢٠٠٠م .
١١. الحجة في القراءات السبع / ابن خالويه (ت٣٧٠ هـ) ، تحقيق وشرح : الدكتور عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق /ط١-١٩٧٧م .
١٢. حروف المعاني / ابو القاسم الزجاجي (ت٣٤٠هـ) ، حققه وقدَّم له : الدكتور علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ،ط١-١٩٨٤م
١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / الآلوسي (ت١٢٧٠ هـ) ضبطه وصححه / علي عبد الباري عطيه ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١-٢٠٠١م .

١٤. شرح التسهيل / جمال الدين بن مالك (ت٦٧٢ هـ) تحقيق / محمد عبد القادر عطار وطارق فتحي السيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ،ط ١ ،٢٠٠١م .

١٥. شرح جمل الزجاجي / ابن عصفور الاشبيلي (ت٦٦٩ هـ) تحقيق الدكتور : صاحب ابو جناح ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ،ط١-١٩٨٠م .

١٦. شرح الرضي على الكافية/الرضي الأستراباذي (ت٦٨٦ هـ) شرح وتحقيق الدكتور : عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ،القاهرة ط١-٢٠٠٠م .

١٧. شرح المفصّل/ ابن يعيش (ت٦٤٣ هـ) : قدَّم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور : اميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط١-٢٠٠١م .

١٨. في النحو العربي قواعد وتطبيق / د. مهدي المخزومي ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط١-١٩٦٦ .

١٩. كتاب سيبويه / سيبويه (ت١٨٠ هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب ، ط١٩٨٣،٣م .

٢٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل / الزمخشري (ت٥٢٨ هـ) ، رتبه وضبطه وصححه / مصطفى حسين احمد ، مطبعة الاستقامة –القاهرة ، ط١-١٩٤٦م.

٢١. الكشف والبيان المعروف تفسير الثعلبي / للثعلبي (ت٤٢٧ هـ) دراسة وتحقيق : الامام ابي محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق الاستاذ : نظير الساعدي ، دار احياء التراث العربي – بيروت ، لبنان ، ط١-٢٠٠٢م .

٢٢. المبهج في القراءات السبع / سبط الخياط البغدادي (ت٥٤١ هـ) تحقيق :سيد كسروي حسن ،دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ،ط١-٢٠٠٦م .

٢٣. مجمع البيان في تفسير القرآن / الطبرسي (ت٥٤٨هـ) دار احياء التراث العربي / بيروت – لبنان /١٣٧٩هـ .

٢٤. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها / ابن جني(٣٩٢ هـ) تحقيق الدكتور علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحكيم النجار والدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، القاهرة ،١٩٩٤م .

٢٥. معاني القرآن / الفراء (ت٢٠٧ هـ)

ج١ – تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي نجار

ج٢ – تحقيق ومراجعة الاستاذ محمد علي النجار

ج٣ – تحقيق الدكتور:عبد الفتاح اسماعيل شلبي،مراجعة الاستاذ علي النجدي ناصف،دار السرور .

٢٦. معاني القرآن واعرابه / الزجاج (ت٣١١ هـ) ، شرح وتحقيق : د. عبد الجليل عبده شلبي،خرج

٢٧. احاديث:الاستاذ علي جمال الدين محمد، دار الحديث، القاهرة -٢٠٠٤م .

٢٨. معجم القراءات القرآنية / اعداد الدكتور احمد مختارعمر والدكتور عبد العال سالم مكرم ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط٢، ١٩٩٨م .

٢٩. المقتضب/المبرد(ت٢٨٥ هـ)،تحقيق:محمد عبد الخالق عضيمه،عالم الكتب ، بيروت

٣٠. النشر في القراءات العشر / ابن الجزري (ت٨٣٣ هـ) أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع ، ط٢-٢٠٠٣م .

٣١. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : السيوطي (ت٩١١ هـ) تحقيق الدكتور : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية بدون رقم طبعة ولا سنة الطبع .

ثانياً : الرسائل الجامعية

١. الحدود النحوية من النشأة الى الاستقرار / زاهدة عبد الله محمد العبيدي ، اطروحة دكتوراه – اداب الموصل ١٩٩٠م .

٢. العطف بين الدرس النحوي والاستعمال القرآني / عبد الستار مهدي علي / اطروحة دكتوراه – آداب المستنصرية ،١٩٩٨م .

الهوامش

١. ينظر شرح التسهيل : ٢٠٢/٣ ، وشرح المفصّل ٢٧٦/٢ والحدود النحوية من النشأة الى الاستقرار /٢٢٤-٢٢٦ ، وحروف العطف بين الدرس النحوي والاستعمال القرآني /٨-١١ .

٢. ينظر الكتاب ٤٣٧/١-٤٣٨ ، ومعاني الفراء ٣٩٦/١ ، والمقتضب ١٠/١ ، والاوصول ٥٥/٣ ، وحروف المعاني /٣٦ و اسرار العربية /٣٠٢ .

٣. ينظر الكتاب ٤٣٨/١ ، وهمع الهوامع ١٨٥/٣ .

٤. ينظر الكتاب ٤٣٧/١-٤٣٨ ، ٤١/٤ .

٥. ينظر احياء النحو ١١٥-١١٦ .

٦. ينظر في النحو العربي قواعد وتطبيق ١٩١

٧. ينظر شرح جمل الزجاجي / ابن عصفور ٢٥٩/١ ، والبحر المحيط ٤٣٨/٣ .

٨. ينظر اعراب القرآن / النحاس ٧٨/١ ، والبحر المحيط ٥٥٨/١ ، وروح المعاني ٣٨٢/١

٩. ينظر المحتسب ١٠٨/١ ومجمع البيان ٢٠٧/١ ومعاني الفراء ٧٨/١ .

١٠.روح المعاني ٣٨٢/١ ، وينظر البحر المحيط ٥٥٨/١ .

١١.ينظر الكشاف ١٩١/١ .

١٢.ينظر روح المعاني ٣٨٧/١ .

١٣.التفسير الكبير ٦٦/٤ .

١٤. ينظر معجم القراءات القرآنية ١١٧/١ و روح المعاني ٣٨٧/١

١٥. ينظر روح المعاني ١٩٧/٩ .

١٦. روح المعاني ١٩٧/٩ .

١٧. معاني الفراء ٢٣٠/٢

١٨. التفسير الكبير ٣٠/١٦ .

١٩. روح المعاني ٢٧٦/٥ .

٢٠. روح المعاني ٤/٦ ـ٥ ، وينظر البحر المحيط :٩٣/٥ .

٢١. معاني الفراء ٥/٣ ، والى هذا المعنى أشار الزجاج ، ينظر معاني القرآن واعرابه ٢٧٨/٤ .

٢٢. ينظر التفسير الكبير ٣٣/٢٧ ، وتفسير القرطبي :١٩٣/١٥ .

٢٣. ينظر روح المعاني ٣٠١/١٢ .

٢٤. تفسير القرطبي ١٩٣/١٥ .

٢٥. ينظر الكشاف ٣٤٣/١ ، والتفسير الكبير ١٧٩/٧ ، وينظر البحر المحيط ٤٢٠/٢ .

٢٦. البحر المحيط ٤٢٠/٢

٢٧. الكشاف ٥٩٢/١.

٢٨. ينظر البحر المحيط :٤١٥/٣ .

٢٩. الكشاف ٥٩٢/١ .

٣٠. ينظر تفسير ابي السعود :٢٢٣/٢ وروح المعاني ١٩٥/٣ .

٣١. ينظر التفسير الكبير ٩٣/١١-٩٤ ، والبحر المحيط ٤١٩/٣-٤٢٠ .

٣٢. ينظر الحجة في القراءات السبع / ابن خالويه ١١٩/ ، وينظر روح المعاني ٣٩٤/٢ ، والمبهج في القراءات السبع :١٧٧/٢ .

٣٣. ينظر شرح التسهيل ٢٣٣/٣ ، والهمع ٢٢١/٣ ، وينظر النشر ٢٤٧/٢ ، والحجة في القراءات السبع ١١٨ ، ومعاني الفراء ٢٥٢/١ ، وروح المعاني ٣٩٤/٢

٣٤. روح المعاني ٣٩٦/٢ .

٣٥. ينظر معاني الفراء ١٢٤/١ ، والبحر المحيط ١٣٤/٢ .

٣٦. ينظر – تفصيل ذلك ، التفسير الكبير ١٨١/٥ – ١٨٥ .

٣٧. وهي قراءة الاعمش الاّ الشنبوذي ، ينظر المبهج في القرارات السبع ١٠٤/٢ .

٣٨. ينظر معجم القراءات القرآنية ١٥٩/١ .

٣٩. البحر المحيط ١٣٤/٢

٤٠. تفسير القرطبي ١٩/٣ .

٤١. ينظر الانصاف ٤٧٥/٢ .

٤٢. ينظر نفسه ٤٧٤/٢ .

٤٣. الكتاب /٢٧٨/١ .

٤٤. ينظر شرح جمل الزجاجي ٢٤٢/١ .

٤٥. شرح الكافية / الرضي ٦٣/٣ .

٤٦. ينظر الانصاف /٤٧٧ .

٤٧. ينظر البحر المحيط ٣٠٦/١ ، وروح المعاني ٢٣٤/١ .

٤٨. ينظر البحر المحيط ٣٠٦/١ ، وتفسير الثعلبي ١٨١/١ .

٤٩. روح المعاني ٢٣٤/١ .

٥٠. ينظر روح المعاني ٢٣٤/١ .